عقيدة الحبل بلا دنس في الطقس البيزنطي

بقلم الاب نقولاوس قادري ق ب

مدخل

الانسان ، مولود المرأة الى العالم حاملاً في ذاته نتائج الخطيئة الأصلية ومتغرباً عن الحياة الالهية التي قصد الله ان يعطيها للانسانية كلها كما اعطاها لآدم وحوا، عندما خلقهما في الفردوس. وضاعت هذه الحياة الالهية في فردوس عدن وتجرد منها ابوانا الأولان فكان لا بد لكل انسان ولد مرة اولى للحياة البشرية ان يولد ثانية للحياة الالهية. وهذا هو السبب الاساسي من وضع سر العماد كواسطة للخلاص ولفيض الحياة الالهية ومن لا يعتمد بالماء والروح فلن يدخلَ ملكوت السماوات ولا بلدَ القديسين ولن يصبح أبداً في أسرة ابنـاء الله وعضواً في الجسد السري وغصناً في الكرمة الحقيقية في يسوع المسيح .

مع ذلك خليقة واحدة دخلت الى العالم وهي كاملة النقاوة وحائزة على نعم الله ورضاه بالرغم من السيل الجارف الشامل لكل ابنـاء آدم . وحدها دخلت الكيان البشري وكانت « كلها جميلة ولا عيب فيها » اجل لقد ولجت الى العالم وهي مزينة باجل النعم وهذه الخليقة الفريدة هي مريم العذراء ام الله . وتسمي الكنيسة المقدسة هذا الانعام الذي لا يعادله شيء بالحبل بها البري من الخطيئة الاصلية .

ففي الثامن من كانون الاول من عام ١٨٥٤ حدّد البابا بيوس التاسع بأن لمريم العذراء « بنعمة خاصة وبانعام فريد وبالنظر الى استحقاقات يسوع مخلص الجنس البشري وجدت بريئة من وصمة الخطيئة الأصلية منذ أول لحظة من الحبل بها .[1] » فهذه العقيدة الجديدة في وضعها القانوني والقديمة الأجيال في الاحساس بها احساساً قلبياً وعن طريق الصلاة والتأمل في اسرار الديانة المسيحية هي موضوع بحثنا من خلال الطقس البيزنطي .

---

١) راجع براءة بيوس التاسع في تحديد الحبل بلا دنس ومطلعها « الاله الذي لا يوصف داترغر عدد ١٦٤١ .

عيد الحبل بوالدة الاله

في القرون الاولى للنصرانية اتجهت افكار المسيحيين نحو يسوع المسيح موضوع أبحاثهم وتعاليمهم. وما ان اشرق القرن الخامس إلا وحدّد في مجمع افسس عام ٤٣١ امومة العذراء الالهية[1]. ومنذئذ تطلعت الأبصار بارتياح الى وجه مريم الغني بالصفات والسمات الفريدة وارادت ان تطلّ على ضياء هذا الجمال الخالد لتنعم بكنوزه فراحت تعمل الفكر والقلب والخيال واذا بالشعر والموسيقى والنحت والتصوير ترفع للعذراء الهياكل المجيدة وتشيّد لها المعابد على دعائم العبقريات والايمان[2]. فالاشواق السامية والخيال المبدع والعواطف المختلجة في القلب البشري والاحلام التي كانت توزع على الليالي القمراء كواكب جديدة وذلك الانتظار الطويل، انتظار العوالم والقرون وُجدت على الفور مترعة عندما ظهر هذا الوجه الحلي وجه مريم العذراء والأم الالهية ليسوع المسيح ابن الله الوحيد.

وغدا هذا الموضوع الجديد يؤلف وحدة قوية بين الابن والأم وابتدأت اعياد العذراء مريم تنبجس من قلوب المؤمنين. فرسموا عيد البشارة وعيّدوا لسر الامومة عقيب مجمع افسس. وفي القرن السادس أقاموا عيد مولد العذراء. وأتبعوه بعيد انتقالها الى السماء. وفي مطلع القرن الثامن بزغ عيد الحبل بوالدة الاله فكان الشرق البيزنطي السابق الفخور بحبه وتعلقه بمريم العذراء. فأقام لها الاعياد والاعياد ليبرهن على انه المستطلع الاول على امتيازاتها وسمو طهارتها وقداسة طبيعتها التي تكوّنت بحسب المجرى الطبيعي، ولكن ابن الله سبق فانتخبها من بين سائر الاجيال لتكون اماً له وصانها بريئة من العيوب معصومة من الخطيئة الأصلية. ومن تبعات هذه الخطيئة.

ومن هذه الشهادات قانون القديس اندراوس اسقف كريت (+٨٢٠) يا تنشده الكنيسة البيزنطية في صلوات العيد الموضوع لليوم التاسع من كانون

(١ Cf. Martin Jugie. D.T.C. « *Immaculée Conception dans l'Eglise Grecque* ». T. 7. col. 893

(٢ Cf. Pierre Molaine: *L'Itinéraire de la Vierge Marie.* Corrêa, 1953 p.7-8

Cf. Louis Chaigne: Histoire de Marie. Paris 1949 p. 26-27

الاول ومطلع هذا القول : « ايتها المتألهة افعل حنة ... يعيد اليوم لجبلك لانك اذ قد أُطلقت من القيود العقرية حبلت بالتي وسعت الذي لا يسعه مكان»[1] ونجد اول عظة في موضوع هذا العيد عند يوحنا اسقف افيه (Eubée) معاصر القديس يوحنا الدمشقي († ٧٤٩) . فالاسقف المذكور يدعو حبل حنة أول الاعياد وبحسب النظام التأريخي[2] وقد عمّ هذا العيد كنائس المملكة البيزنطية في أيام فوتيوس (٨٦٩) ورفعت درجة الاحتفال به الى مقام الأعياد الاحتفالية المبطلة للعمل في زمان الملك باسيليوس الثاني (٩٨٤) وهـذا الامبراطور نفسه حدّد يوم الاحتفال في التاسع من كانون الأول . ومن بعده أثبت الامبراطور مانويل كومنين ببراءة ملوكية ظهرت سنة ١١٦٦ واجب الاحتفال بهذا الموسم العظيم كما هي المراسيم الجارية في الاعياد الكبيرة .

موضوع العيد في الطقس البيزنطي

كل من تصفح نصوص الآباء والشعراء والصلوات الليتورجية وجد ان للعيد موضوعاً شاملاً لنقاط ثلاث :

النقطة الاولى هي البشارة . جاء ملاك الله الى يواكيم وحنة وبشرهما باستجابة مسألتيهما وصلواتهما : « ايها الربُّ لقد استجبت طلبة جدّيك الصديقين وأتممت مسألتيهما المقدسة ومنحتهما ثمرةً وهي والدتك النقية[3] . هذه هي نقطة انطلاق العيد وقد استوحاها الشعراء من الخيل يعقوب المرّيف[4] وحولها حاكوا نواة العيد « ان حنة العفيفة اذ كانت قديماً تصلي بايمان سمعت صوت الملاك محققاً لها استجابة مسألتها فخاطبها علانية ان طلبتك قد بلغت الى الرب فلا تحزني بل كفكفي الدموع لانك ستصيرين زيتونة حسنة الثمر مخرجةً غصناً بهيًّا .»[5]

---

١) موسوعة الآباء اليونان مجلد ٩٧ عمود ١٣٠٥ وكتاب الميناون العربي الجزء الأول صفحة ٢٩٣

٢) موسوعة الآباء اليونان مجلد ٩٦ عمود ١٤٧٧

٣) ٩ كانون الأول قانون أودية ١—٣

٤) Cf. E. Amann ; *Le Protévangile de Jaques.* P. 99

٥) ابو ستيخن قطعة ثانية .

النقطة الثانية هي اعجوبة الحبل الذي تمّ في حشا عقيم: «ان حنة التي هي النعمة الالهية قد هتفت قديماً وهي تصلي من اجل ولد صارخة نحو خالق الكل والهها: يا أدوناي الصباؤوت انت عارف عارَ العقم فأزل ألمَ قلبي وافتح مسالك احشائي واجعل العادمة الثمر مثمرة[1]» وربما تكون هذه النقطة موضوعَ الاحتفال في مظهره الخارجي فيكون العيد شكراً لله على الاعجوبة التي صنعها مع يواكيم وحنة. وتثبيتاً لهذه النقطة تصرّح الكنيسة في صلواتها وتردّد صدى الاعجوبة: «ان الذي أنبع من الصخرة ماء، قد منح جوفكِ يا حنة ثمرة وهي السيدة الدائمة البتولية التي سيأتي منها الخلاص فقد تخلصت من العار فلا تسكتين بعد على الارض كأرض عادمة الثمر لانك تولدين ارضاً تثمر سنبلة الحياة[2]». الا ان الاعجوبة لا تذكر بالنسبة الى نتيجتها «فقد منح جوفك يا حنة ثمرة وهي السيدة الدائمة البتولية التي سيأتي منها الخلاص».

والنقطة الثالثة للعيد البيزنطي هي الحبل في نتيجته اي في اتيان ام الله الى الوجود بطريقة مقدسة وبحال مستغربة وبالمام صانع كل المبرزات ويصرّح القديس اندراوس في قانونه عن نتيجة الحبل كانها محور العيد وغايته الاولى: «يا حنة لقد شُرِعَ يُنسج في جوفك برفيرة ملوكية التي اذ يتسربل بها الاله ملك الكل يظهر الأنام ويقهر الاعداء المحاربين لنا على الدوام[3]».

ويبقى للعيد توجيهه الأولي وتفدو العذراء مريم غاية الاناشيد ومرمى الشعراء وصدى لاقوال الأنبياء. «ان اقوال الانبياء السابقة قد تمت لان الجبل المقدس يستقر في الحشا. والسلم الالهية تنتصب والعرش العظيم للملك يُهيأ ومكان اجتياز الاله يُعدّ والموسجة الغير المحترقة قد اخذت في الافراع وخزانة طيب التقديس تفيض الآن انهاراً[4]» ومن خلال هذه النبرات نشعر مع الكنيسة بان مريم لبثت بالنسبة الى الخطيئة الأصلية كالعليقة غير المحترقة (Βάτος ἡ ἀφλεκτος) بنار الخطيئة. وهي في سموّها وطهارتها كانت منذ اول لحظة خزانة طيب التقديس (ἡ Μυροθήκη τοῦ ἁγιάσματος).

---

١) ابو ستيخن قطعة اولى.
٢) غروب قطعة ٣
٣) قانون ٧-٣
٤) غروب ٩ ك١ قطعة ٣

والنقطة الاولى هي التي أوحت العيد وأدخلت الاحتفال في التقويم الليتورجي ولكن لا ننس ان نتيجة البشارة كانت ترمي الى اتيان الفائقة القداسة التي سوف تقدس البشرية « بطيب التقديس » اجل لم يكن العيد ناشئاً عن مجادلات ومحاورات لاهوتية وابحاث فلسفية ولم يتخطَ في التعبير الا عما يشعر به المؤمن في تأملاته وسجوده وايمانه ولم يدخل العيد اليوناني كما كان دخوله في الغرب نتيجة مباحثات منطقية وفلسفية بل كان حاجة الى إكمال الاعياد المريمية . وقد أوحى الانجيل المنسوب الى يعقوب الرسول الموضوع الاول في مظهره التاريخي أي انه اوحى البشارة المقدسة حنة بالحبل العجيب والالهي[1] ἐν τῇ Θείᾳ Συλλήψει واما العنصران الآخران فاتحدا طبيعياً وبديهياً بتلك النواة الأولية وتُسمى مريم ثمرةَ برّ أي ثمرة قداسة جديرة بمن وهبها . وثمرة وحيدةً في جنسها تحوي كل الصفات .

بيد أن العنصر الثالث اعني الحبل بوالدة الاله قد شغل المقام الأول في فكرة الشعراء والآباء فأنشدوا حبلَ حنة لانها حبلت « بثمرة سوف تفتح باب الفردوس بالنعمة » (Ἤνοιξεν τὴν Θύραν τῆς Χάριτος)[2]. وباب الفردوس قد أُغلق بسبب الخطيئة الأصلية ومريم تفتحه لانها تسمو على الخطيئة. ونجد في اناشيد العيد صدًى قريباً لهذه القضية التي تهمنا. وتغنى الشعراء والكتاب باتيان مريم الى الوجود وتصورها بالحشا العقيم ومنذئذ اصبحت الخليقة الجديدة التي صدرت من يد الخالق بنوع عجيب وهذا هو السر المستغرب الذي لا تدرك عظمته من الملائكة والبشر يظهر طفلاً في احشاء حنة العفيفة اعني به مريم فتاة الله مهيأة لسكنى ملك الدهور كلها[3]. « ليست اعجوبة الحبل بالسر المستغرب وانما شخص مريم المتكوّن في احشاء حنة بنوع الهي هو موضوع السر المرموز اليه وليس ظهور مريم بالوجود بالسر المستغرب وانما طريقة ظهوره للوجود على خلاف عادة المولودين هو السر المستغرب لأن مريم هي « فتاة الله والمهيأة لسكنى ملك الدهور كلها » اذا يجب ان يكون دخولها للعالم بنوع فائق وبقداسة سامية .

---

١) Cf. Μαρίτιξ Tom. II P 419. Ἐν Ῥώμῃ 1889

٢) قانون اودية ٣–٢ ٣) ٩ كا ١ غروب كانون .

وقد رأى الشعراء كما رأى الخطباء. رأوا في شخص مريم المزمعة ان تكون اما ليسوع المسيح صورة ابنها المتجسد لفداء البشرية و«تجديد الجبلة الانسانية» وقد افسح هذا العيد المجال للشعراء ان يعبّروا عن اعتقادهم بقداسة مريم والدة يسوع الاله الانسان فقالوا في وصفها : « ان مصفّ الانبياء قد سبق فأنبأ قديماً عن النقية البريئة من العيوب الإبنة فتاة الله التي حبلت بها حنة وهي عقيم عادمة الثمر . فلنغبطها اليوم بابتهاج قلب نحن المخلصين بها بما انها وحدها بريئة من كل عيب »[1] «ὡς μόνην Ἁγνὴν ὡς» ففي هذه النبرة الاخيرة وحدها بريئة من كل عيب نجد صدّى للانعام الخاص بمريم التي حبل بها بدون الخطيئة الأصلية والخطيئة هي عيب بنظر اللاهوتيين والآباء. ومريم وحدها وُجدت من أول لحظة من كيانها الانساني معصومة من هذا العيب بريئة منه ومن كل العيوب .

وبسبب هذا الاعتقاد المستند الى الحقيقة المخصبة نجد عناوين العيد في اكثر الكتب واللفات الليتورجية البيزنطية ترمي الى الحبل في نتيجته، وفي سره وغرابته وبعده عن المسير الاعتيادي . من هذه العناوين : « حبل حنة بوالدة الاله » وهذا العنوان نجده شائعاً في القرون الوسطى عند اليونان والسُلاف وما تحمل هذه العناوين نتيجة الحبل فحسب بل ان اغلب الصلوات الموضوعة لهذا العيد تهدف الى الحبل في نوعه المقدس وفي حدّه الأخير : « اليوم من أصل داود قد تفرّعت برفيرة ماركية واخذت تنبت زهرة يسى السرية[2] » وهذه الحقيقة تصرّح بها حنة اذ تقول : « ها انا أتقبل في احشائي التي سبق داود فدعاها ملكة سأله شفيعة جميع المؤمنين. »[3] واذا كان موضوع العيد شاملاً لهذه النقاط الثلاث مع ذلك يبقى الحبل المقدس النقطة الاساسية والصلوات هي صدى للايمان الحي يتوضح على ممر الاجيال .

نوع التعبير عن العقيدة في الطقس البيزنطي

يرجع تحديد العقيدة الى الثامن من كانون الأول ١٨٥٤ وقد أعلن البابا بيوس التاسع ببراءته «الاله غير الموصوف» صيغة التحديد بهذه الأوضاع: «بسلطة

١) كانما اولى . كانين .
٢) غروب عيد الحبل كانين ابو ستيخن.
٣) قانون ٨-١

يسوع المسيح والرسل الاطهار بطرس وبولس وسلطتنا نحن نعلن ونحدد بانه بامتياز خاصة وبانعام فريد من قبل الله القدير واعتبارا لاستحقاقات يسوع المسيح مخلص الجنس البشري نحدد بأن مريم العذراء وجدت لأول لحظة من الحبل بريئة من كل وصمة الخطيئة الأصلية .»[1]

في الطقس البيزنطي لا توجد مثل هذه الأوضاع الصريحة وهذه التعابير التي أفضت اليها المباحثات اللاهوتية على توالي الاجيال واننا في العيد البيزنطي والصلوات اليونانية اساليب عديدة لبسط هذا الايمان النير وللتحسس بهذه الفكرة الاساسية التي تؤلف موضوع التحديد المباشر .

وفي الاجيال الاولى الثلاثة للنصرانية تكلم الآباء اليونان عن مريم العذراء فدعوها حواء الجديدة كما دعوا يسوع آدم الثاني ونعتوها بالكلية القداسة وام بتول لانها ام يسوع المتجسد وقد شاركت ابنها في عمل الخلاص الذي جاء ينتقض اللعنة وعمل الهلاك الذي جرته حواء الاولى على البشرية. وكما ان ربنا خلّص بطاعته ما أضاعه الإنسان الأول بعصيانه : « كما انه بمعصية انسان واحد جُعل الكثيرون خطأة كذلك بطاعة واحد جُعل الكثيرون أبرارا»[2] كذلك العذراء مريم ام الكلمة المتجسد تبدو واسطة خير وآلة خلاص للبشرية المتجددة : « ان الله استرجع بعمل مناقض لعمل صورته ومثاله الذين شوهها الشيطان فاستخدم لذلك عذراء ثانية ليعطي العالم الكلمة الفادي حتى ان الجنس الذي كان سبب خسارتنا هو نفسه يصير آلة خلاصنا.»[3]

والقديس يوستينوس الفيلسوف رسم هذه الفكرة لأول مرة في حواره مع تريفون : « صار ابن الله انساناً من عذراء حتى تأخذ المعصية جدها على منوال ما ابتدأت » عندما قبلت حواء في قلبها كلام الحية وبهذا الفعل ولدت المعصية والموت، كانت عذراء وبدون فساد وأما مريم العذراء. فعندما كانت نفسها ممتلئة من الايمان والفرح اجابت الملاك جبرائيل رسول الفرح والسعادة : ليكن لي !

---

١) رسالة البابا بيوس التاسع Ineffabilis Deus الصادرة في ٨ ك١ سنة ١٨٥٤

٢) رومية ٥-١٩

٣) موسوعة الآباء اللاتين Migne مجلد ٢ عمود ٧٨٢ ترتليانوس

حسب قولك.»[1] والقديس ايرناوس يتوسع بالموضوع نفسه ويعطيه مقاماً مهماً في تعليمه «لقد جدد يسوع المسيح كل شيء. اذ بدأ بالهجوم على الشيطان عدونا فصرعه وتغلب على من في البدء امرنا بشخص آدم وسحق له رأسه بحسب قول الله للحية.»[2] ثم يتابع تحقيقه لهذه المقابلة بين مريم وبين حواء: «قرب آدم كانت حواء المرأة الاولى التي اعطاها الله عوناً بازاء آدم وشريكة له ولكن بعصيانها صارت لذاتها سبب موت وللجنس البشري بأسره. وقرب آدم الجديد كانت مريم وهذه بطاعتها هذه سببَ خلاص للجنس البشري بأسره بل ان الجنس البشري خضع للموت بسبب عذراء. هكذا من جديد حصل الخلاص بواسطة عذراء. بحسب التوازن العادل فطاعة عذراء (مريم) عوّضت ما أضاعته وخسرته معصية عذراء (حواء).»[3] والآباء قبل مجمع نيقية سنة ٣٢٥ يسمون مريم العذراء القديسة Ἁγία Παρθένος أي فهي قديسة بنفسها وجسدها ومنها اخذ الكلمة جسداً يتوافق مع تحقيق مقاصده الرحيمة وقد دعوها العود غير الفاسد Ξύλον ἄφθαρτον الذي صنع منه تابوت العهد اي بشرية يسوع المسيح غير الفاسدة فالمسيح يسوع هو بدون خطيئة بما انه بحسب بشريته من العود غير الفاسد اعني من مريم العذراء الطاهرة البريئة من كل العيوب ومن الروح القدس[4].

ومن مجمع نيقية حتى مجمع افسس (٣٢٥ — ٤٣١) على الرغم من اهتمام الآباء العظام بالعقائد اللاهوتية والردّ على الاراتقة وانشغالهم بالمسائل الكبيرة كالثالوث ولاهوت يسوع المتجسد نجد مع ذلك مسألة طهارة مريم البتول موضحة بأوضاع تفيض بالتعبير الحي فديديم (Didyme) الاسكندري ينعت مريم «بالعذراء البريئة دائماً وابداً»[5] Ἀεὶ Καὶ διὰ παντὸς ἄμωμος παρθένος وهي دائمة البكارة وكاملة الطهارة ولا تعني الكمال الطبيعي فحسب بل تمتد ايضاً الى كمال الروح والنفس وبما ان مريم دائماً عذراء فهي دائمة القداسة. وبما

١) موسوعة اليونان Migne مجلد ٦ عمود ٧١٠
٢) موسوعة الآباء اليونان مجلد ٧ عمود ١١٧٩
٣) موسوعة الآباء اليونان مجلد ٥ عمود ١١٧٥
٤) Cf. X. Le Bachelet. *Imm. Concep.* D. T. C. tome VII. Col. 873,874
٥) موسوعة الآباء اليونان مجلد ٣٩ عمود ٨٣٣

عن ان العركة الالهية تستقر في العذراء منذ أول نشأتها في احشاء امها حنة فتكون قد استفادت من الامتلاء من النعم ولا يمكن للكنيسة ان تفترض تكوّن جسد مريم بدون زرع كما يزعم بعض الارثوذكس[1].

والبرهان الليتورجي يستند الى نصوص الآباء ومعتقدهم فيصبح آنذاك دليلاً ثابتاً وقوياً على ان الطقس البيزنطي يعبر عن عقيدة الحبل المنزه عن العيب بأوضاع كثيرة فيقول عن مريم : « ان ميلادك بريء من العيب ايتها البتول البريئة من العيب والحبل بك غير موصوف »

« Ἀχραντός σου ἡ γέννησις. Παρθένε ἄχραντε. ἀχραντος ἡ σύλληψις καὶ ἡ ὠδίς »[2]

فهذه شهادة مباشرة وواضحة ولا يمكن انكارها فالقديس اندراوس اسقف كريت يثبتها عن معتقد عميق ولا يعني بكلمة « ميلادك » ἡ γέννησις ميلاد يسوع لان النشيد انما وُضع لميلاد العذراء في الثامن من أيلول وليس لعيد الميلاد .

ويقول انها « بريئة من العيب » ἀμώμητος وبريئة من كل العيوب « παναμώμητος » وانها انتخبت منذ الأزل لتكون في الزمن وبحسب الجسد أمّاً الاله : « اليوم حنة تهتف قائلة : يا رب لقد سمعت صلاتي ومنحتني ثمرة الموعد التي هي والدتك الطاهرة النقية السابق تحديدها من بين سائر النساء ومن قبل جميع الاجيال[3] والكنيسة في ضراعاتها كثيراً ما تستدعي المؤمنين ليكرموا الحبل بمريم المقدس : « فلنكرم الحبل بها المقدس »[4] و « هلم يا معشر المؤمنين لنبادر نحو البتول التي قبل تصورها في الحشا سبق تحديدها امّا لالهنا تولد من اصل يسى. »[5] ويصوت

١) راجع الارثوذكسية السنة الثالثة تشرين الاول ١٩٥٣ عدد ٨ صفحة ٦ « لا وعن حبل حنة بالعذراء والدة الاله الفائقة القداسة بدون مضاجعة يراكم لها وهذه هي البدعة التي يسوقها (الحبل بلا دنس) كأن صاحب المقالة « غير الارثوذكسية » لم يبحث بتعليم الكنيسة الكاثوليكية ولا علم له بالحقائق اللاهوتية وانما ينسب الضلال عن غاية في النفس.

٢) قانون اندراوس الاقريطشي ٨ ايلول أودية ٥—٣ Μηναῖα T. T.P 98

٣) قانون اندراوس الاقريطشي ٨ ايلول اودية ٦—٣

٤) كانون بعد الأودية الثالثة .

٥) ٨ ايلول كانون ابو ستيخن .

صورة السيدة العذراء مع الطفل يسوع والملائكة لفرا انجيليكو - محفوظة في فلورنسة.

الانسان الأول خُلق وجُبل من ارض طاهرة فكان يجب على الانسان الكامل ان يولد من عذراء طاهرة وبريئة من العيب «Ἐκ τῆς ἀμώμου. Καὶ ἐστὶν» «ἀμώμου Παρθένου» وبه المقابلة بين الارض والعذراء. وقد وُلد منها آدم الأول وآدم الثاني هي الفكرة المشتركة «ἀμώμητος» وهذا النعت يُفهم بالوضع الأول عن الأرض البكر ولا تدعو في وضعها الثاني الا الى الكمال البتولي ويفهم هذا النعت ἀμώμητος بحد ذاته عن الأرض التي لم تتدنس بخطيئة آدم وبالنتيجة لم تخضع للعنة الله . وعندما نحمل هذه الصفة على شخص مريم في الوضع الثاني من المقابلة فانها تسمو وتدل بوضوح على الكمال والنزاهة من كل عيب «παρθένος οὖσα καὶ ἄῤῥαφος» .

والقديس ابيفانوس يتخطى المقابلة بين حواء ومريم الى ما ابعد واعمق فلا يصل التعليم عن آدم الجديد وحواء الجديدة بآية سفر التكوين ٣—٢٠ فحسب بل يستنتج عدة نتائج عن المهمة التي تختص بها مريم . ينظرها بصور ورموز في المرأة الاولى آخذة اسم حواء وأم الأحياء . اجل يقول هذا القديس «اخذت حواء هذا الاسم بعد انْ سمعت هذه الكلمات : انتِ ارضٌ والى الارض تعودين اي بعد الخطيئة . فلماذا اعطيت هذا اللقب بعد سقوطها ؟ اذا اعتبرنا فقط الحياة الجسدية والمادية فالجنس البشري كله متحدر حقيقةً من حواء ولكن بالحقيقة مريم ادخلت الى العالم الحياة الحقيقية وهي التي ولدت الحي وتدعى أم الأحياء .»[1] ألا تفترض هذه المهمة نعمة وقداسة فريدة ؟ والقديس ابيفانوس يفترض هذه النعمة والقداسة عندما يقدم لنا العذراء مريم «كسكن وهيكل معدّ لتجسد الكلمة وتعدها لهذه المهمة العجيبة مذهلة وجودة الله .» ولا يرضى ان تكون مريم الهاً او آخذة جسدها من السماء[2] «Μαρία οὐκ ἀπὸ οὐρανοῦ ἔχουσα τὸ σῶμα» . وهو ينفي عن مريم الحبل بلا زرع كما تعلم الكنيسة الكاثوليكية «ليس الحبل بالعذراء مريم حبلاً بدون زرع فمريم خاضعة للاحوال التي ترافق التوليد البشري الذي يفترض فعل الزواج[3] «Κἂν πάντως ἐκ σπέρματος ἀνδρὸς καὶ μητρὸς γυναικὸς» ولا شيء يمنع

١) مجموعة الآباء اليونان مجلد ٤٢ عمود ٧٢٨

٢) مجموعة الآباء اليونان مجلد ٤٢ عمود ٧٤٣

٣) مجموعة الآباء اليونان مجلد ٤٢ عمود ٧٤٩

الشاعر وشعب المسيحي يحتفل بالحبل الالهي : «هلمّ نعقد اليوم عيد روحيا ونهدي اشواق لتقدمة العيد هدية الشاكد المقبولة لوالدة الاله فخر جنسنا مكرمين الحبل الالهي بها على غير أمل.»[1] فهذه الاوصاف العديدة تبرهن عن تفرد هذا «الحبل العجيب» و «الطاهر من قبل الله» و «الذي تمّ بمثال الهية.»

والطقس اليوناني في صلواته العديدة والبديعة كثيرًا ما يقابل بين العذرا. مريم وطغمات الملائكة «فهي اكرم من الشاروبيم وارفع مجدًا بغير قياس من السارافيم». وبها تسامت هذه الطغمات في الطهر والنقاء. «فريم تفوقها جميعاً «ايتها البتول لقد ظهرت اسمى من الشاروبيم وارفع من السارافيم وارحب من السماوات وانت ارفع سموًا من جميع المخلوقات»[2] ومريم لأجل نقاوتها وطهارتها وتنزهها عن العيب أحبها الاله العلي واتخذ منها جسدًا من جسدها هذا النقي البري. من كل عيب والذي لم يوجد لحظة تحت سيطرة الخطية لان للعذرا. جسدًا لم يقبل سريان الخطيئة الأصليه بحسب شهادة الشاعر جاورجيوس الذي تغنى بالحبل البري. من العيب : «يا والدة الاله النقية ان عجائبك تفوق قوة الاقوال سموًا لاني أدرك ان لك جسدًا يفوق الوصف لم يقبل سريان الخطيئة لذلك اهتف نجوك بشكرانك ايتها البتول النقية بالحقيقة ارفع سموًا من جميع المخلوقات»[3] «Χαίρε γὰρ ἐν σοὶ Κεχαρὰ ἔπαρε λόγον. Ἔχεις ἀναφέρειν» «ἀνεπίδεκτον».

هذه هي الخطيئة الأصلية التي تسري الى جميع ابناء آدم ولكنها تقف في سيرها عند مريم الحاجز وهذا النص يكاد ينطق بالعقيدة كما حددتها الكنيسة وارتكزت في تحقيقها على شهادات الكتاب المقدس والتقليد وخصوصاً على نصوص الليتورجيا التي تنطق ببراءة مريم الفائقة. واذا ما قال الطقس البيزنطي بأن مريم حازت نعمة دائمة عند الله وانها خلقت شبيهة بآدم قبل ان يخطأ وهي المجددة لآدم وحواء. : «ان ملكة الكل الخدر الالهي الذي سبق الختم بجعلها مسكناً لله التي بها وطئت الجحيم الهائلة وبها حواء مع كل ذريتها تلج في حياة

١) ٨ ك١ غروب كبريه ١
٢) ٢١ ت٢ اودية ٩–٢
٣) قانون جاورجيوس ٢١ ت٢ أودية ٩–

مصونة »[1] ظهرت مريم الساحقة لرأس الحية كما صورها كتاب الخليقة وتنبأ عنه اذ قال الله للحية سأجعل عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك وبين نسلها فهي تسحق رأسك وانت ترصدين عقبها[2] فمريم هي التي انجبت النسل الكريم يسوع المسيح الذي به ومعه سحقت رأس الحية سحقت الشيطان عدو الانسانية لانه « بحسد ابليس دخل الموت الى العالم »[3]. و « الشيطان هو قاتل الناس منذ البدء »[4] وهو يضل المسكونة ويخدعها . »[5] فمريم اذن هي التي شنت الحرب والصراع الخالدين على الحية وعلى ابليس وانتصرت عليه وسحقت رأسه بقدميها الطاهر البريء .

والعذراء وحدها ما احتاجت الى المصالحة مع الله لانها تقدست وتبررت منذ ظهورها في حشا امها حنة . وهي كانت دائماً مباركة ووحدها مباركة وبالاخص لو وجدت هذه الفكرة تحت قلم كتاب وشعراء. وصفوا الخطيئة الأصلية باللعنة وقد علموا بانه من المستحيل ان نفترض بمريم اقلّ عيب وأصغر دنس ان في النفس او في الجسد لانها بريئة من كل العيوب وأم الهنا » و « قد سبقت فبشرت كل العالم يا علة حياتنا واضمحلال اللعنة وهبة البركة[6]. Καταρας ανατρεπουσα κ. ευλογιας χ ανατιθουσα وكيف تضمحل اللعنة لو كانت العذراء مارئة بالخطيئة وتحت سيطرة ابليس وكيف تكون تجديد آدم وحواء. كما تسميها الليتورجيا . « لنضرب القيثار الروحي في موسنا هذا البهي لان فيه قد ولدت أم الحياة فأزالت الظلام بما انها ينبوع عدم الفساد وتجديد آدم وحواء التي بها تألهنا ونجونا من الموت »[7] في كل هذه الأوضاع نرى مريم تزيل ظلام الخطيئة وتغدو ينبوع عدم الفساد ينبوع النعم وهي ممتلئة نعمة كما سلّم عليها جبرائيل « افرحي يا ممتلئة نعمة الرب معك مباركة انت في النساء. ومباركة هي ثمرة بطنك »[8] ولو كانت مريم مارئة بالخطيئة لما استطاعت ان تكون تجديد

١) ٨ ايلول لتين العيد قطعة زاهية .
٢) تكوين ٣–١٥
٣) سفر الحكمة ٢–٢٤
٤) يوحنا ٨–٤٤
٥) رؤيا ١٢–٩
٦) ٨ ايلول ابو سفيخن قطعة ٢ Μαγαζι Τ. Ι. Ρ. 92
٧) ٨ أيلول كانون لتين .
٨) لوقا ١–٢٨ و٤٢

آدم وحوا. » وعلة « تأنثا » . فهي اذن النقية التي تقدست لله قبل الحبل بها : « ايتها النقية انك قد تقدست لله قبل الحبل بك »[1] وبذلك يمكنها ان تسحق رأس الحية « ولا تلامسها يد مدنسة بالكلية[2] » Μηδενὸς μολυσμοῦ ψαυούσης

فهذه العذراء التي لا تعتد اليها الخطيئة ولا تسري الى جسدها ونفسها فهي « السيدة التي وحدها تعلو الجميع[3] » فيكون الحبل بها بريئاً من الدنس منزهاً عن العيب جديراً بالتمجيد « ايتها النقية انني امجد الحبل بك واعظم مولدك الفائض الوصف »[4] ولم هذا التمجيد وكيف يكون مولد العذراء غامض الوصف لو كان للشيطان اليدُ في تلويث هذا الجسد الطاهر منذ أول لحظة وكيف يكون الحبل بالعذراء غريباً كما تقول صلوات الكنيسة : « ايتها العذراء ان الحبل بك مستغرب ومولدك عجيب » فأين الغرابة والاعجوبة لو كانت مريم خاضعة كبقية الناس لسريان الخطيئة الأصلية ؟ وكيف تزهر سنبلة عدم الموت ؟ وكيف « تفتح باب الفردوس بالنعمة[5] » وكيف « تزيل بتلادها اللعنة التي وجبت علينا بآدم[6] » ؟ لو خضعت مثل آدم لحكم اللعنة ؟

ومدلول الصلوات واضح والهتافات بنقاوة مريم المطلقة بالنسبة الى البشر تعلو من كل قلب وتحلو على كل فم : « ايتها الفائقة القداسة والدة الاله خلصينا[7] » والايمان بقداسة مريم السامية يبقى صريحاً في صلوة ايتها السيدة النقية الطاهرة العذراء عروس الاله العادمة العيب البريئة من الأدناس[8] . »

وهي الممتلئة نعمة حتى في حين الحبل بها كما رأينا وهي « العطر الذكي التي تقبلت طيب الحياة[9] » ولم « يشتم منها رائحة الفساد[10] » « يا ايتها الملكة وعروس الآب البريئة من العيب[11] » .

ومريم العذراء هي الفريدة من بين النساء المغمورة بالنعمة الالهية ، كيف

---

١) ٢١ ت٢ كانون ثانية .
٢) ٢١ ت٢ تاسعة ١ Mixaia T. II. P. 233.
٣) ٩ ك ١ قانون ثاني ١—٤
٤) ٢٠ ت ٢ قانون ٦—٥
٥) ٩ ك ١ قانون اودية ٣—٢
٦) ٧ ايلول كيريه غروب قطعة ٣
٧) مدائح . قانون .
٨) افشين نوم الصغرى .
٩) ٩ ك ١ قانون ٧—٣
١٠) ١٥ آب قانون اودية ٦—٢
١١) ٨ ايلول ابو سيخن قطعة ٣

تكون خاضعة للخطيئة الاصلية والخطيئة هي اللعنة وهي الفساد ؟ وقد دعاها الشعراء ينبوع عدم الفساد وتجديد آدم والتي بها تألهنا ونجونا من الموت الروحي. كيف تكون ينبوع النعمة و «موزعة النعم[1]» كما يدعوها يوحنا الدمشقي اذا كانت الخطيئة الاصلية قد اقتربت من نفسها او جسدها ولو لحظة واحدة وهذا الأمر لا يكون لان الله يحب أمه وقد تدخل بنوع خاص وبانعام منه ومنة الهية تدخل ليقدس الحبل بها لانها ستكون بالحقيقة ام الله . وام يسوع السيد وطيب الحياة . وقد هيأها بلاطاً لائقاً به فتصبح بالحقيقة على حسب كلام الليتورجيا ابنة الله Θεοτόκος الكلية القداسة والفردوس الذي غرسه الله والخدر الكلي الجمال وعرش الله العلي الذي استقرَّ فيه بالجسد . فكل هذه الأوضاع التي استعملها الآباء والشعراء والكتاب في تسمية مريم العذراء بريئة من العيب تدل بوضوح على سلامة المعتقد في الكنيسة اليونانية ورسوخ هذا الايمان فيها وتدل بنوع كاف على ذكرة الحبل البريء من وصمة الخطيئة الأصلية كما فهمتها الكنيسة الكاثوليكية في تحديدها القانوني وايمانها الراسخ .

١) ٢٥ كا١ قانون اودية ٩-٦